مفهـــوم الادراك فى علم الجريمة (*)

تأليف ريتشارد هنشل وروبرت سلفرمان
عرض : عبد الله الصادق ابراهيم (**)

حوى هذا الكتاب ثلاثة اجزاء رئيسية : تضمن الجزء الاول : مقدمـــة وعرضا لبعض الموضوعات الاساسية منها : الملاحظة كمسلك منهجـــى يلجأ اليه رواد نظرية رد الفعل الاجتماعى وآداة تعين هؤلاء فى دراســـــة ظواهرهم خاصة الانحراف والمعوقات التى تحول بين الفرد وتكيفه مع المحيط الاجتماعى المباشر ، والجزاءات التى يوقعها المجتمع أو القانون على الفـــرد المجرم . هذا وقد تناول هذا الجزء بعض الدراسات الميدانية لمعرفة مسببات الجريمة واجراء المقارنات بين المنحرفين وغيرهم لمعرفة دوافع الجريمة ومدى وراثية هذا السلوك او اكتسابه ، ونوع العقاب الذى يوقعه المجتمع أو القانون فى حالة جرم السلوك .

تضمن الجزء الثانى من هذا الكتاب اشارة الى مفهوم العداله والقانون الجنائى والمعنى العام لمصطلح الجريمة والاتجاهات العامة فى تفسير السلوك الاجرامى ، وحكم القانون فى حالة الاحتجاج أو المعارضة ، ومدى شرعيـــة أو منطقية الحكم على جرم السلوك . وعقد مقارنات بين أفعال المجرمين فى بعض البلاد مثل أمريكا وبريطانيا وبين شرعية ومنطقية الحكم على جرم تلك الافعال فى تلك البلاد ، وما هى المسئولية الجنائية المترتبة على هذا الفعل ؟ وما هى الاسباب الكامنة وراء ارتكاب هذا السلوك .

شمل الجزء الثالث من هذا الكتاب توضيحا لرد الفعل الاجتماعـــى تجاه السلوك المنحرف . ويتضمن هذا دراسة الواقع الاجتماعى للجريمة ، ودور الشرطة فى تضخيم عملية الانحراف ، ومدى استجابات الافراد تجـــاه هذا السلوك ، واجراء بعض الدراسات عن نظرية الوصمات وهى احـــدى نظريات رد الفعل الاجتماعى ومؤدى تلك النظرية أن المجتمع هو الذى يســـم او يدمغ السلوك بسمة معينة لان السلوك فى مضمونه واحد لا يتغير لكن

---

* Richard L. Henschel and Robert A. Silverman, Perception in Criminology, Columbia Un. Press, N. Y. 1975.

(**) مدرس مساعد بقسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة .

الذى يتغير هو مدى الحكم على طبيعة هذا السلوك ، وتركيز الاهتمام نحو دراسة المنحرفين . وفى النهاية محاولة نقدية تظهر موقع نظرية رد الفعل الاجتماعى بين النظريات المفسرة للجريمة .

تصور مفهوم الادراك مقدمة الكتاب ، وقد حظى هذا المفهوم باهتمام علماء الاجتماع والفلاسفة الاجتماعيين أمثال « ماكس فيبر » و « توماس » و « وجورج ميد » الذين يبحثون دائما عن الحقيقة وراء كل شىء ، وكذلك فلاسفة البراجماتية أمثال « كارل مانهايم » و« الدارسين للقومات والاجناس » ، وقد تناولت مقدمة هذا الكتاب مفهوم رد الفعل Labeling اى الادماغ ومؤدى هذا أن المجتمع هو الذى يدمغ السلوك او يسمه بسمة معينة بأنه اجرامى من عدمه على سبيل المثال ، وهنا يظهر مفهوم الادراك ذا أهمية كبرى فى الميدان الاجتماعى والفلسفى ، وفى هذا الصدد حاول « ريتشارد هنشل» و «روبرت سلفرمان» توضيح ذلك المفهوم وازالة اللبس والغموض حوله وذلك لخدمة علم دراسة السلوك الاجرامى بصفة خاصة وخدمة كافة أشكال السلوك الانسانى بصفة عامة .

يلاحظ أن استخدام علماء النفس لمفهوم الادراك يظهر بصورة واضحة عن استخدام علماء الاجتماع له يبدو ذلك واضحا فى عمليات القياس النفسى وقياس القدرات العقلية . ولذلك نجد أعطى علماء الاجتماع لهذا المفهوم اهتماما بالغا ويبدو ذلك واضحا فى تركيزهم على تلك الفكرة التى مؤداها : انه يوجد لدى الناس أفكار ووجهات نظر عديدة حول طبيعة الافعال الاجتماعية ، وكذلك حول طبيعة التفاعل الاجتماعى وينطبق هذا القول على الفرد والجماعة . وفى هذا يقول المؤلفان أن بؤرة الاهتمام تنصب حول ما هو كائن وليس حول ما كان وماهو فى الماضى وأن الشىء الهام او الفكرة النافعة هى تلك التى تحقق فائدة . وفى هذا اتفاق واضح مع فلاسفة البراجماتية الذين يؤمنون بأن الفكرة تكون صادقة اذا حققت من وجودها نفعا وهذا هو قلب اهتمام نظرية الحق او الصدق البرجماتى .

فالادراك هو ما يحمله الناس من مواقف الرضا والاقتناع وهنا يبدو الشىء الهام هو كيف يرى الناس العالم من حولهم وكيف يدرك الانسان العالم المحيط به أو كيف يكون هذا العالم واضحا امام البشر فالمدركات تختلف باختلاف البشر ؛ وفى هذا يحاول « أروين بوتشر » Arwin Beutscher ادراك حقيقة الخلافات والصراعات التى تدور حول ما نفعله وما يجب أن نفعله وما نقوله وما يجب أن نقوله وما هو عام وخاص وكان الهدف من تلك الدراسة التعرف على ما يدور داخل الفرد نفسه وما يعتقده

وما يفعله وما يجب أن يفعله تجاه هذا السلوك .

وقد ساهمت نظرية الادراك فى اثراء علم دراسة السلوك الاجرامى اسهاما عظيما وان كانت قد تعثرت منذ البداية لما واجهته من صعوبات حالت بينها وبين تقدمها وانتشارها بالدرجة التى يمكن القول معها أنه ليس هناك جهود مجتمعة حول المصادر الاولية المتصلة بنظرية الادراك فى علمدراسة الجريمة . وجاءت نظرية رد الفعل الاجتماعى لتحتل مكانتها بين تلك النظريات التى قدمت اسهامات عظيمة الشأن فى تفسير السلوك الاجرامى بصفة خاصة وفى تفسير السلوك الانسانى بعامة . ومن هذا المنطلق جاءت نظرية الادراك لكى تثرى تلك الاعمال وتنظم تلك الجهود المبعثرة وتجدد الامل فى اعادة تجميع المادة على أسس معرفية ومنهجية سليمة ووضعها فى اطار موحد شامل . وحاولت تلك النظرية أيضا ادماج المفهومات المشتقة فى بعضها مثل مفهوم **رد الفعل المادى** labeling material ومفهوم الادراك فى علم الجريمة ومفهوم الادراك فى العدالة الجنائية . ومفهوم الارادة مثل هذه المفاهيم سوف يقدم التسهيلات الملحوظة فى عمليات البحث والدراسة لعلم الجريمة فى معالجة موضوعات تتصل بميدان هذا العلم وبميادين أخرى .

وقد تضمن هذا الكتاب بعض الموضوعات منها :ـ

١ ـ نقد الاحصاءات الجنائية .

٢ ـ دراسة الواقع الاجتماعى للجريمة .

٣ ـ الاتجاه الميكانيكى فى تفسير السلوك الاجرامى .

٤ ـ الاتجاه الارادى فى تفسير السلوك الاجرامى .

٥ ـ الخلاف بين الاتجاه الميكانيكى والارادى فى تفسير السلوك الاجرامى .

٦ ـ الاهتمام بالمذهب العقلانى فى تفسير السلوك الاجرامى .

فيمكن الاعتماد على الاحصاءات الجنائية فى تقديم بيانات واقعية عن طبيعة السلوك الاجرامى سواء كان ذلك فى صورة كمية أو كيفية مثال ذلك التقارير الرسمية للمجرمين والمسجونين وهذه مؤشرات على وجود الجريمة، وربما لا تمثل تلك الاحصاءات الجنائية الواقع الاجتماعى للجريمة من هنا كان أمر دراسة الواقع الاجتماعى للجريمة وجمع المعلومات من خلال معايشة الظاهرة فى غاية الاهمية . وفى هذا يقول « جونسون » أن الاحصاءات

الجنائية يمكن ان تصحح بعض الاخطاء التى وقع فيها البعض وهو يجمع معلومات عن بعض ظواهر الجريمة . وفى هذا ينوه « بيكر » الى ان البيانات التى جمعها بعض علماء الاجتماع وعلماء دراسة السلوك الاجرامى بصفة خاصة يمكن ان تلتمس العذر للاحصاءات الجنائية وتخفف عنها النقد الموجه اليها .

وقد حاولت النظرية الميكانيكية تقديم تفسير لطبيعة السلوك الاجرامى مؤادة أن الظواهر التى تحدث مصاحبة للسلوك تقترن بوجود هذا النمط من السلوك وليست خالقة له ، فالمفهوم الميكانيكى هنا يشير الى الطبيعة الدينامية الفعالة للسلوك ، وتذهب تلك النظرية الى أن هناك مجموعة من العوامل الاجتماعية التقليدية تلعب دورها فى تشكيل هذا السلوك . وتتمثل تلك العوامل فى الطبقة الاجتماعية ودرجة القرابة واعمار الوالدين ونظام الميلاد . هذا الى جانب وجود عوامل أخرى مثل العامل الجغرافى تلعب دورها أيضا فى تشكيل هذا السلوك .

وجاءت نظرية الارادة لتقدم تفسيرا آخر للسلوك الاجرامى هادفة للمعنى الكامن وراء هذا السلوك ، فالسلوك يحمل معنى ذاتى فحينما يؤدى الفرد بعض الحركات المادية كالمشى والركوع والسجود فان هذه الحركات المادية تنطوى على معنى معين . وان الركوع والسجود والمشى ينطوى تحت قيمة معينة هى قيمة التدين ، وهذه القيمة ترتبط ببناء اجتماعى وثقافى معين هو ثقافة المجتمع المسلم . فاذا كان السلوك يؤدى وظيفة معينة وقد تشكل هذا السلوك بفعل متغيرات او عوامل معينة فان لهذا السلوك معنى أيضا . وهنا يأتى دور العوامل الاجتماعية فى تفسير السلوك لتحل محل العوامل الميكانيكية فى تفسير السلوك . وهكذا جاءت وجهة النظر الاجتماعية لدحض الاتجاه الميكانيكى فى تفسير السلوك .

واذا كان هناك تأكيد على دور الاتجاه الميكانيكى والارادى فى تفسير السلوك الاجرامى فانه يظهر دور آخر لاتجاه جديد هو الاتجاه العقلى . وفى اطار ذلك الاتجاه تظهر القيم والاتجاهات والاهداف التى يحملها كل فرد . بل أصبح هذا الاتجاه علامة مميزة نحو كل هدف يسعى الفرد الوصول اليه . وعلى هذا يمكن القول أن مفهوم الادراك جاء من وحى عقل الكاتب ولم يأت من خلال البحث عن الحقيقة الكامنة خلف هذا الاطار .

قدم « شيف » Scheff اسهامات عظيمة لتوضيح رد الفعل تركزت حول الخلل الوظيفى الذى يصيب العقل فى مرحلة معينة وفى وقت معين ، وفى

هذا مسلك « والتر بيكلى » Welter Buckley نفس الخط الذى سلكه شيف وقد أضاف الكثير . وتتمثل تلك الاضافات فى امكانية تفسير مفهوم الادراك وفقا لما يراه أنصار تلك النظرية بوجهتين من النظر :ـ

الاولى : تتلخص فى عرض انطباعات الافراد الآخرين تجاه الفرد المنحرف وما يحمله هؤلاء عن ذلك الفرد .

الثانية : يمكن عرضها بطريقة توضح مدى التغيرات والتطورات المحتملة فى مدركات الفرد المنحرف للموقف المحيط به والظروف التى يعيشها هو نفسه هذا فضلا عن الكشف عن انطباعاته الشخصية عن الآخرين واتجاهاتهم نحوه . وهنا يبدو رد الفعل الاجتماعى فى مدى حكم الغير على الفرد وانطباع الاخير عن الآخرين .

وقد تكون الاسباب الكامنة وراء السلوك الاجرامى بيولوجية او سيكولوجية أو جتماعية فقد يتصرف الافراد فى بعض الاوقات بطريقة غير عادية وينظر اليهم على أنهم فعلا غير عاديين وسلوكهم هذا خاطىء. لكن هذا السلوك لايستمر فترة طويلة الا وتحدث تغيرات فى جو العائلة او فى النطاق الاجتماعى المحيط بالفرد . وهنا يطالب الفرد والجماعة بالعدول عن هذا السلوك والانصياع لقالب الحياة الاجتماعية . مثل تلك الاستجابات تمارس أثرا على الفرد وتشكله ـ وتجعله ينسجم مع القوالب الاجتماعية وتكون نتلك العملية ثمرتها فى فترة التنشئة الاجتماعية . وهكذا يمكن القول بوجود رد الفعل الاجتماعى تجاه الخلل الوظيفى للعقل أى أنه حينما يشرد العقل ويسلك مسلكا منافيا لنواميس المجتمع فان المجتمع يرد على هذا الفرد بالعدول عن هذا المسلك . هذا فى الوقت الذى يرى فيه الفرد آثار تلك العملية بنوع من الضرر يدفعه الى التشرد . وقد يحدث هذا ايضا خلال التنشئة الاجتماعية . من هنا نقول أن هذا الفرد شاذ فى سلوكه ومنحرف .

هناك دليل قائم على قوة القانون فى الحياة الاجتماعية فمعظم الناس الخارجين على نظام الكون يتعرضون لطائلة العقاب اما بالقبض عليهم فى حالة ارتكابهم هذا العمل الاجرامى ، واما يرد المجتمع عليهم بنوع من العقاب الرادع وفق ما تحكم به قيم المجتمع ومعاييره . وهنا يتساءل « جار فنكل » الى اى مدى تنهار معايير مجتمع يعيش اقتصاده على طريقة تقليدية وسلبية وما يصاحب ذلك من انهيار فى القواعد القانونية التى تسود تلك المجتمعات وترتب على ذلك وجود رد فعل مباشر تجاه تلك الافعال التى تعتمد أساسا

على عدم الادراك وسوء الفهم لطبيعة الظروف المحيطة بالفرد والتى بعقبها انهيار القيم المجتمعية . وقد اهتم « سلاستر » Claster بعمل بحث أمريكى يفترض فيه أن المنحرفين يدركون قوة القانون بصورة أوضح وبآثار أقل من غير المنحرفين . وقد توصل الى تلك الحقيقة من خلال استبار حصل منه على استجابات العامة نحو قوة القانون حيث قارن بين المنحرفين وغيرهم من السكان بغية الوصول الى مدى الاستجابة للانحراف . وقد اعتبر هذا مقياسا عاما للادراك وفهم لطبيعة العقاب وان كان ذلك يختلف باختلاف الظروف والأحوال .

وهناك العديد من الدراسات الحديثة التى اهتمت بدراسة الآثار المترتبة على عدم ادراك طبيعة العقاب وكانت أحد الاسباب المؤدية الى ذلك هو جهل الافراد بخطورة العقاب وعدم اتاحة البيانات الدالة على وجود العقاب وكيف يحفظ الفرد نفسه من الوقوع تحت طائلته ، وعدم وجود المقاييس الموضوعية فى تحديد طبيعة العقاب . وفى هذا قام تيفان Teevan بجمع بيانات عن بعض طلاب الجامعة الكنديه لكى يتحقق من ادراك الافراد للعقاب وخطورته . وقد دلت الاستجابات التى قال بها المستبرون أن التفكير فى العقاب أثابة وخطورة كان سلبيا بعض الشىء فلم يفكر فى العقاب وخطورته لا للافراد أنفسهم أو لاصدقائهم أو حتى لمن يشتبهون فيهم .

بصرف النظر من طبيعة الجريمة الا ان الصورة الغالبة والدينامية للانحراف تاتى من الخارج ونتيجة للتفاعل الاجتماعى . فقد يولد الفرد ولديه استعداد لممارسة السلوك المنحرف لكنه فى الوقت نفسه قد يكتسب هذا السلوك من خلال المعايشة والظروف المحيطة بالفرد .